على قبر المعـــري

للدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب

— ٤ —

ما أجدر هذه الأبيات أن تنقش عند ضريح الشاعر[1]، وأى كلام أولى بقبر ابى العلاء من أبياته فى صفة قبره ؟ طال وقوفنا وتأملنا واعتبارنا ناظرين إلى هـذا الجدث ، قارئين فيه فلسفة أبى العلاء القائل .

لو تُخِل الناس لما حصّلت شيئاً سوى الموت يد الناخل

والفكر يحلق فى أرجاء العالم ، ويعبر صحف الحياة ثم يقف على هذا القبر كما يقع الطائر بعد طول تحليق وتدويم .

فيالك قبراً عـــلى قربه تظل العقول به فى سفر
ويالك قبراً كعين البصير يحوى العوالم فيهـا صِغَر

وتكلم على القبر الدكتور طه حسين والدكتور مهـدى البصير وأنشدت قصيدة معروف الرصافى ، ولكن كان سكون هذا الجندل أبلغ . كان هذا السكوت أغلب على السمع والقلب من كل قول . ان هذا النطر المسمّى الضريح بيتُ المقطع من شعر الفيلسوف الحزين . إن هذه الصفيحة الجاثمة على قبره وقد ألحّ عليه البلى ألف عام لكلمة فى فلسفة المعرى جامعة . لا أدرى أأقول إنها عنوان وراءه كل ما قال الشاعر فى الحياة والموت ، أم أقول إنها توقيع الزمان مصدّقا كل ما أنشد الشاعر فى البلى والفناء والزوال .

(١) تقدمت الأبيات فى المقال السابق .

ثم دخلنا إلى الحجرات التى شيدت وراء القبر لتتخذ خزائن لمكتبة المعرى . وانصرف الزائرون يسلكون الشارع الكبير إلى دار مضيّفنا . وسلكت فى صحبة سعادة الأستاذ كرد على دربا عتيقا ضيقا إلى هذه الدار ، الدار التى أكرمت وفادتنا قبل أربعة عشر عاما ، دار حكمت بك الحراكى . وهى من دور الشام القديمة ظاهرها قلعة وباطنها روضة . وكانت الدور الكبيرة فى تاريخنا تبنى ليسكن إليها أهلها وينعموا فيها ويستكنوا ، وكانت حرما لأهلها ، ومنتدى للصحب والجيرة . فلما قُلبت معيشتنا ، قلبت الدور فصار باطنها ظاهرها ، وزالت حُرمتها وحصانتها وهجرها أهلها إلى النوادى العامة .

اجتمع الضيوف فى قاعات الدار وفى حديقتها حول الأحواض والنافورات وقد صفت قلوبهم ونضرت وجوههم ، وتحدثوا فى ماضيهم وحاضرهم . ثم اجتمعوا على المائدة فكهين فرحين يذكرون المعرى ويذكرون الأدب العربى والأمة العربية كلها . وربّ الدار وأولاده وأقاربه قائمون يتنافسون فى خدمة الضيفان مبالغة فى الاحتفاء والإكرام .

وقدّمت الفواكه فيها تين المعرة وهو أخضر كبير حلو . قلما لهذا رغب أبو العلاء فى التين وجعله حلاوته قال :

يُقنعنى بُلسُن يمارس لى فإن تكن حلاوة فبَلَس

والبلس التين .

وقال ياقوت فى معجم البلدان عن أهل المعرة : « ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين » .

* * *

خرجنا بعد هزيع من الليل والقمر يترقرق نوره على بلدة أبى العلاء الحبيبة — كانت — إليه ، وفيها يقول وهو ببغداد :

فيا برق ليس الكرخ دارى وإنما رمانى اليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
فياوطنى إن فاتنى بك سابق من العيش فلينعم لسانك البال
فان أستطع فى الحشر آتك زائراً وهيهات — لى يوم القيامة أشغال

وضربنا صوب الشمال نقصد حلب .

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

والسيارات تجدّ فى سكون الليل لا يُسمع إلا دويها ولا يرى معها إلا ظلالها . ورحم الله أبا العلاء كأنه عناها حين قال :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابق الظلالا

وكان حديثنا أفانين فى تاريخنا وحاضرنا وذكرى أبى العلاء وبعض الشعراء لاسيما أبو الطيب المتنبى ، وتأبى مكانة أبى الطيب إلا أن تصله بكل حديث عن الأدب أو جدال فيه . وصدق الأستاذ النشاشيبى حين يقول : ما تكلم اثنان فى الأدب إلا دخل معهما المتنبى خصما ثالثاً . وكم أنشدنا من شعر أبى الطيب فى مسيرنا هذا وردّدنا الحديث بينه وبين المعرى المعجب به . وكيف لا نذكر المتنبى ونحن على مقربة من حلب التى ما برحت تدوّى بشعره منذ أنشده فيها .

طاب لنا أن نقيس فلسفة الشاعر الحزين اليائس رهن المحبسين بفلسفة الشاعر الساخط المتكبر الآمل الرحّال الجوّال ، صفحتان فى الأدب خالدتان ، وسيرتان فى الحياة مختلفتان ، وهما فى الحق متقاربتان ، على عكس ما قال أبو الطيب :

وقد يتقارب الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان

وأقبلت حلب بذكرها ، وأشرفنا عليها فى حشد من التاريخ نكاد نسمع البحترى والمتنبى والصنوبرى ، ونبصر ازدحام الوفود على أبواب سيف الدولة ، والجيوش ذاهبة لحرب الروم وآيبة والخطوب فى مدها وجزرها ، والزمان فى نعيمه وبؤسه .

ودخلنا المدينة وكاد الليل ينتصف ، والقمر يجلو محاسنها ، ويجمل ذكرياتها وعلى ألسنتنا قول الصنوبرى ،

حلب بدر دجى أنجمها الزهر قراها
أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها
حلب أكرم مأوى وكريم من أواها
بسط الغيث عليها بُسط نور ما طواها
وكساها حُللا أبدع فيها إذ كساها

ولم ننس أبيات كشاجم ، وكيف ينسى زائر حلب هذا الشاعر المبدع .

أرتك يدا الغيث آثارها وأخرجت الأرض أزهارها
وما أمتعت جارها ببلدة كما أمتعت حلب جارها
هى الخلدُ يجمع ما يُشتهى فزُرها فطوبى لمن زارها

وأوينا إلى فندق بارون حيث لقينا وجوها معروفة تبالغ فى الحفاوة بنا ، من حكام حلب وعلمائها وأدبائها ، وبينهم شباب نجباء كانوا تلاميذ لنا فى جامعة القاهرة .

وأصبحنا نجول فى أرجاء المدينة نشهد آثارها وما شاده العمران الحديث فيها ، ونمشى فى أسواقها المعمورة التى عرفتها العصور القديمة والحديثة . رأيت القلعة العجيبة وكنت دخلتها مرات من قبل وذكرتها فى رحلاتى فلا أعود إلى وصفها ولكن أكتفى بكلمة لياقوت لم أنقلها فى الرحلات :

« وأما قلعتها فيها يضرب المثل فى الحسن والحصانة . لأن مدينة حلب فى وطاء من الأرض . وفى وسط ذلك الوطاء جبل عال مدوّر صحيح التدوير مهندم بتراب صح به تدويره . والقلعة مبنية فى رأسه ولها خندق عظيم وصل بحفره إلى الماء ، وفى وسط هذه القلعة مصانع تصل إلى الماء المعين ، وفيها جامع وميدان وبساتين ودور كثيرة »

وقد أخبرت أن آثاراً لسيف الدولة عثر عليها فى القلعة أخيراً ، إلى ما رأينا فيها من آثار الأيوبيين والمماليك وغيرهم .

وكانت جولتنا فى الأسواق قصيرة ممتعة جامعة . سرّنا ما رأينا من عظم الأسواق والخانات ، وأعجبتنا بدائع الصناعات الحلبية . وحلب منذ العصور القديمة معروفة بتجارتها وصناعتها ولأهلها بصر بالتجارة وعناية بها ، وأسفار فى سبيلها .

وقد حدثنى أحد تجار حلب بهذه الفكاهة :

قال رجل لآخر : لا يخلو قطر فى الأرض من حلبى . فما راه الرجل فى هذا وقال : إنى ذاهب إلى الهند وما أحسبنى أجد فيها حلبياً ، وسأنظر . فلما جال الرجل فى أرجاء الهند وجد قبرا كتب عليه : « هذا قبر فلان الحلبى الأعرج »

وقال ياقوت :

« وما زال فيها على قديم الزمان وحديثه أدباء وشعراء ولأهلها عناية باصلاح أنفسهم وتثمير أموالهم ، فقل أن ترى من نشئها من لم يتقيل أخلاق آبائه فى مثل ذلك . فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ، يتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » .

وأنا أرجو أن يدوم أهل حلب على هذه السيرة الطيبة النافعة إن شاء الله .

(للكلام صلة)

عبد الوهاب عزام